مركز الدراسات العقائدية
(١)

المقدمة الكاملة للأسفار

بقلم
آية الله الشيخ
محمد رضا المظفر [قده]

مركز الدراسات العقائدية
١

المقدمة الكاملة للأسفار



بقلم
آية الله العلامة الشيخ
محمد رضا المظفر

بطاقة الكتاب:

اسم الكتاب	المقدمة الكاملة للأسفار
اسم المؤلف	آية الله الشيخ محمد رضا المظفر(قده)
الكمية	٢٠٠٠ نسخة
الطبعة	الأولى
المطبعة	الرائد للطباعة والتصميم/النجف الأشرف
جهة الإصدار	مركز الدراسات العقائدية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين المعصومين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين ·

تمتع الفكر الشيعي بوضوح الرؤية ورصانة الحجة والاستيعاب لمفردات الفكر الإنساني سواء في ما طرحه من معالم العقيدة أو فيما أجاب به على شبهات وتشكيكات الآخرين ، فأعطى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عقيدة كاملة رصينة تمثل ركنا أساسيا من أركان الدين الخاتم للأديان وقد ساهم جمع من الأعلام في توضيح تفاصيل ما بينه الرسول واله الطاهرون فيما أسسوه من طرح عقائدي باستدلالات موافقة للعقول المستقيمة والفطرة السليمة ، وقد اختلفت مشارب الأعلام في البيان حتى وصلت حد التباين فكان لاختلاف وجهات النظر دور في تنوع الطرح من جهة وما يستتبعه من تعدد النقد الفكري من جهة أخرى ، طلبا للحقيقة مع الحفاظ على الخلق العلمي الرفيع ، ومن هنا كانت مدرسة الفيلسوف المشهور ملا صدرا الشيرازي (ره) التي اعتمدت ـ كما يقول أقطابها ـ البرهان والعرفان والقرآن كانت مثار جدل كبير في ما تطرحه من أفكار ورؤى سواء في المنهج الفكري المتبع فيها أو في النتائج التي توصلت إليها وتبنتها ، وممن تعرض لتقييم هذه المدرسة هو الشيخ المظفر إذ استعرض بعض مميزاتها وما يراه من نقدها فيما كتبه كمقدمة لكتاب الأسفار·

العلامة المظفر

هو الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد المظفر ، وهو غني عن التعريف إذ تعرفه الحوزات العلمية للشيعة أينما كانت بمؤلفاته التي أصبحت منهجا مقررا فيها ، اعني كتاب المنطق وأصول الفقه وعقائد الأمامية ، أو بما كتبه من بحوث رصينة مستقلة كالسقيفة أو مقدمات بعض الكتب كجامع السعادات والأسفار، أو بغير كتاباته من مشاريعه المعروفة ·

صدر الدين الشيرازي

هو محمد بن إبراهيم الشيرازي ، قال عنه صاحب السلافة : كان عالم أهل زمانه في الحكمة متقنا لجميع العلوم له تصانيف كثيرة ··· الخ وقال عنه ميرزا عبد الله أفندي : صدر الدين محمد الشيرازي تلميذ السيد الداماد وهذا الرجل مضطلع بالحكمة ···· الخ · راجع رياض العلماء للميرزا عبد الله أفندي الاصفهاني ج٥ ص١٥·

المظفر والشيرازي

اختلف موقف الأعلام من فكر الشيرازي (ره) ولا يخفى أن الشيخ المظفر من المعجبين بفكر الرجل يدلك على ذلك ما تجده في هذه المقدمة الوافية للأسفار ، قال في بعض ما قال فيها : (يلذ لي الحديث كثيرا عن المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (ألقوامي)، مؤلف كتاب الإسفار المشهور على لسان الناس بـ(الملا صدرا) وعلى لسان تلامذته بـ (صدر المتألهين) أو (صدر المحققين)·

وأنا احد المغرمين بعقله ، وقوة عارضته ، وسمو نفسه وحرية تفكيره ، وحسن بيانه ، ونضج أفكاره وصراحته في نشر آرائه مع ما لاقى من عنت وتكفير)ولكن شيخنا المظفر لا يعبر عنه إلا بـ (صدر المتألهين)

وعندما تصدى جمع لطباعة كتاب الأسفار طلب إلى الشيخ المظفر (قدس سره الشريف) كتابة مقدمة له ، فأجاب وكتب مقدمة وافية للكتاب ، ترجم في بعض فصولها لمصنفه وأرخ لحياته وأوضح منهجه العلمي وتاليفاته ، وذكر في بعض فصولها عقيدة الرجل بوحدة الوجود وبآخر انتماء فلسفته إلى ابن عربي وفي ثالث موقف فقهاء عصر ملا صدرا منه ، والعارف بالشخصية العلمية للشيخ المظفر يجد فيها ما ينبغي أن يوجد في كل طالب للعلم ، باحث عن الحقيقة ، من موضوعية لاتقف به عند شخص ـ مهما سمت شخصيته ـ لتسدل تلك الشخصية حجابها دون الوصول إلى غايته من العلم والتحقيق ، فوقف شيخنا المظفر موقف الناقد الموضوعي المتأني لما وجده في المنهج الفكري للأسفار من موضوعات تستحق النقد ، فانتخب قدس سره ثلاثة موضوعات مهمة وجهها كانتقادات للفكر الفلسفي لصاحب الأسفار وهذه المباحث الثلاثة يتعلق احدها وهو وحدة الوجود بمسالة حساسة جدا من مسائل الفلسفة والعرفان الصدرائي ، والثاني نقد منهجي تمثل في تابعية الشيرازي لابن عربي ، والثالث تاريخي حول موقف فقهاء عصر الشيرازي منه ،

فلم يرق بعض من تلك المطالب للمتصدين لطبع الكتاب فحذفوها من مقدمته المطبوعة آنذاك فتصدى الشيخ المظفر لنشرها في أعداد سبعة من مجلته المعروفة (النجف) وهي :

١ـ العدد الثامن الصادر في ٣٠ ذي القعدة ١٣٧٧هـ ١٩ حزيران ١٩٥٨م ٠

٢ـ العدد التاسع الصادر في ٢٢ذي الحجة ١٣٧٧ هـ ١٠ تموز م ٠

٣ ـ العدد الحادي عشر ١٢ صفر ١٣٧٨هـ ٢٨آب ١٩٥٨٠

٤ـ العدد الثاني عشر ٤ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ ١٨ أيلول ١٩٥٨ ٠

٥ـ العدد الثالث عشر ٤ ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ ١٨ تشرين الأول ١٩٥٨ ٠

٦ـ العدد الرابع عشر ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٨ ٠

٧ ـ العدد الخامس عشر ٢٦ تشرين الثاني ١٩٥٨ م ٠

وقد بين محرر المجلة إن القائمين على نشر كتاب الأسفار حذفوا من مقدمة الشيخ المظفر (المؤاخذات) التي ذكرها ، يقول المحرر في بداية بحث المظفر حول وحدة الوجود ـ ومنه تبدأ المؤاخذات ـ : وهذا من البحوث الفلسفية الجليلة التي تناولت سيرة الحكيم المتأله صدر الدين الشيرازي واتجاهه العلمي وهذه الأبحاث بمجموعها تؤلف مقدمة لكتابه الكبير (الأسفار) الذي هو الآن تحت الطبع بطهران ولكن الناشرين توقفوا من نشر فصول (المؤاخذات عليه) خشية ان تؤثر على سمعة الكتاب ومؤلفه ، بينما إن هذه الفصول تجلي اتجاهه الفكري ٠ وسننشرها تباعا في (النجف) أخذا بحرية الرأي ٠

وها نحن ننشرها بين يدي القارئ الكريم كما هي في مقدمة طبعة الأسفار المعروفة وفي أعداد مجلة (النجف) التي كان يشرف على إصدارها الشيخ المظفر (قده) والموجودة نسخة منها في مكتبة الإمام الحكيم العامة في النجف الأشرف ٠

النجف الاشرف

٢٢ / جمادى الاولى / ١٤٢٨ هـ

٨ / حزيران /٢٠٠٧ م

١/صدر المتألهين الشيرازي

ومنزلته العلمية

هـذا أول البحـوث التـي تناولـت منزلـة المتـرجم لـه ونشـأته العلميتـين ومدرسته الجديدة فـي الحكمـة ومنهجـه ألتـأليفي ومؤلفاتـه والمؤاخـذات عليه وما إليها · وسننشر فصول هذه الترجمة تباعاً وكل بحث مستفيض قائم بذاته ·

وهذه الأبحاث بمجموعها تؤلف مقدمة لكتابه الكبيـر (الأسـفار الأربعـة) الذي هو الآن تحت الطبع بطهران · المحرر

يلذ لي الحديث كثيرا عن المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (ألقوامي) ، مؤلـف كتـاب الإسـفار المشـهور علـى لسـان النـاس بـ(المـلا صدرا) وعلى لسان تلامنته بـ (صدر المتألهين) أو (صدر المحققين) ·

وأنا احد المغرمين بعقله ، وقوة عارضته ، وسمو نفسـه وحريـة تفكيـره ، وحسن بيانه ، ونضج أفكـاره وصـراحته فـي نشـر آرائـه مـع مـا لاقـى مـن عنت وتكفير · وكل ذلك استشعرته من كتبه ورسـائله ، قبـل أن افهمـه من حديث الناس المترجمين له ·

وقبل ١٢ عاما وضعت محاضـرات رمزيـة فـي عـرض فلسـفته تخيلتـه فيهـا كأنه يحدثني في الأحلام ولكن من طريق مؤلفاته ، فتألفت منهـا رسـالة سميتها (أحلام اليقظة) نشر أكثرها في المجلات السيارة ·

فاستجابتي الآن لوضع ترجمة له في مقدمة كتابه ((الأسفار)) العظيم أملتها على تلك اللذة وذلك الغرام · وهاأنذا اقتبس جملة من أفكار تلك الأحلام في هذه الترجمة ·

والحق أن صاحبنا من عظماء الفلاسفة الإلهيين الذين لا يجود بهم الزمن إلا في فترات متباعدة من القرون · وهو – بعد – المدرس الأول لمدرسة الفلسفة الإلهية في هذه القرون الثلاثة الأخيرة في البلاد الإسلامية الأمامية ، والوارث الأخير للفلسفة اليونانية والإسلامية ، والشارح لهما والكاشف عن أسرارهما ·

ولا تزال الدراسة عندنا تعتمد على كتبه ، لاسيما (الأسفار) الذي هو القمة في كتب الفلسفة قديمها وحديثها ، والأم لجميع مؤلفاته هو · وكل من جاء بعد من الفلاسفة في هذه البلاد فان فخر المجلي منهم أن يقال عنه انه يفهم أسرار كلامه أو انه من تلاميذه ولو بالواسطة ومن الطريف حقا أن نجد أساتذة فن المعقول – كما يسمونه – يفتخرون باتصالهم به في سلسلة التلمذة ، حتى إن بعضهم يبالغ في أسماء هذه السلسلة ، كالعناية بسلسلة رواية الحديث ·وأكثر من ذلك أن شيخنا وأستاذنا العظيم المحقق الحجة الشيخ محمد حسين الاصفهاني (١٢٩٦– ١٣٦١) سمعت عنه انه كان يقول : (لو اعلم أحدا يفهم أسرار كتاب الأسفار لشددت إليه الرحال للتلمذة عليه وان كان في أقصى الديار) · وكأن أستاذنا قدس الله نفسه الزكية يريد أن يفتخر انه وحده بلغ درجة فهم أسراره أو انه بلغ درجة من المعرفة أدرك فيها عجزه عن اكتناه مقاصده العالية ·

وأزيدك أني من المؤمنين بان صاحبنا صدر المتألهين احد أقطاب أربعة في الدورة الإسلامية : هو، والمعلم الثاني أبو النصر الفارابي المتوفى حدود ٣٤٠هجـ ، والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٣ – ٤٢٧) ، والخواجا نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ – ٦٧٣) . هؤلاء هم في الرعيل الأول وهم الأصول للفلسفة [١] وصاحبنا خاتمتهم ، والشارح لآرائهم ، والمروج لطريقتهم ، والأستاذ الأكبر لفنهم . ولولا خوف المغالاة لقلت هو الأول من بينهم الرتبة العلمية ، لاسيما في المكاشفة والعرفان .

والرجل نشأ مطارداً منقوما عليه حتى كان يقول عن نفسه كما سيأتي في البحث الثالث : (ما كان له رتبة أدنى من آحاد طلبة العلم) . ولكنه في أيامه الأخيرة اقبل الناس على فلسفته والتلمذة عليه حتى نبغ من بينهم جماعة منهم صهراه على ابنتيه الحكيم المحدث المشهور ملا محسن (الفيض) والحكيم الآخر الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي (الفياض) صاحب شوارق الإلهام . والفيض والفياض لقبان وضعهما لهما أستاذهما وأب زوجتيهما صاحبنا صدر المتألهين أما بعد حياته فقد بعد صيته واقبل طلاب الفلسفة إقبالا عظيما على مؤلفاته يتدارسونها ويكتبونها ويتلمذون عليها ، وسادت مدرسته الفلسفية ومؤلفاته وطغت على كل مدرسة ومؤلفات أخرى حتى مؤلفات الشيخ ابن سينا والخواجا نصير الدين الطوسي . وبالأخير أي قبل مائة سنة فما بعدها طبعت جميع مؤلفاته في المطابع الحجرية بإيران .

٢/صدر المتألهين الشيرازي

ونشأته العلمية

لم نتحقق من التأريخ سنة ولادته ، وقد توفى سنة ١٠٥٠ هـ في البصرة في طريقه للحج للمرة السابعة أو بعد رجوعه · واكبر الظن انه تجاوز السبعين او ناهزها ، فيكون تولده في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري ·

وكل ما عرفنا عنه انه تولد في (شيراز) من والد صالح اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي ، وقيل : كان احد وزراء دولة فارس[٢] التي عاصمتها شيراز ، وانه من عائلة محترمة هي عائلة (قوامي) · وهذا الوزير لم يولد له ذكر فنذر لله أن ينفق مالا خطيراً على الفقراء وأهل العلم إذا رزق ولداً ذكراً صالحَاً موحداً ، فكان ما أراد في شخص ولده هذا (محمد صدر الدين) ·

فتربى هذه الولد الوحيد لأبويه في حجر والده معززاً مكرماً ، وقد وجهه لطلب العلم · ولما توفي والده الذي لم نتحقق سنة وفاته رحل صاحبنا لتكميل معارفه إلى أصفهان عاصمة العلم والسلطان يومئذ في عهد الصوفية · ويظهر انه حين انتقل إلى أصفهان كان ذا ثقافة ممتازة ، لأن أول حضوره كان على الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ – ١٠٣١) · وما تظن بمن يحضر درس الشيخ البهائي وهو شيخ الإسلام يومئذ[١]

ومن ولعه في طلب العلم انفق كل ما خلفه والده من المال في تحصيله ، واشرب المذهب الصوفي الفلسفي (العرفاني) الذي كان هو السائد في ذلك العصر ، والذي كان يجهر به حتى الشيخ البهائي ، فانعكس على نفسية هذا الطلب الذكي · فاولع فيه ولوعاً اخذ عليه جميع اتجاهاته ، وخلق منه صوفياً عرفانيا وفيلسوفاً إلهيا فريداً قل نظيره أو لا نظير له ·
وقد صرح هو في مقدمة الأسفار بهذا الولع ، فقال ص٢ : (قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ أول الحداثة والريعان في الفلسفة الإلهية بمقدار ما أوتيت من المقدور وبلغ إليه قسطي من السعي الموفور) ·
ومن اثر ولعه بالفلسفة واتجاهه هذا كان انقطاعه إلى درس فيلسوف عصره السيد الداماد محمد باقر (المتوفى سنة ١٠٤٠) ، وكان يعظمه كثيراً ومما قاله فيه قوله في شرح أصول الكافي في شرح أول حديث منه : (سيدي وسندي وأستاذي واستنادي في المعالم الدينية والعلوم الإلهية والمعارف الحقيقية والأصول اليقينية ···) ·
وبهذا ومثله يعبر عنه في كل مناسبة تدعو إلى ذكره ·
والذي استنتجته أن صاحبنا صدر المتألهين مرت له في نشأته العلمية ثلاث مراحل رئيسية كونت منه عظيماً من جملة عظماء تأريخ الفلسفة :
(المرحلة الأولى) دور التلمذة ، وهو دور البحث وتتبع آراء المتكلمين والفلاسفة ومناقشتهم ، ويظهر انه لم ينضج يومئذ مسلكه العرفاني ·
وذلك ما يشير إليه قوله في مقدمة تفسير سورة الواقعة ·
(واني كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظار ، حتى ظننت أني على شيء · فلما

انفتحت بصيرتي ونظرت إلى حالي – وذلك بعد المرحلة الأولى هذه – رأيت نفسي – وان حصلت شيئاً من أحوال المبدأ وتنزيهه عن صفات الإمكان والحدثان وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الإنسان – فارغة من العلوم الحقيقية وحقائق العيان مما لا يدرك إلا بالذوق والوجدان) · ويريد من العلوم الحقيقية المكاشفات العرفانية ·

وقد اظهر الندم مما فرط في أول عمره في سلوك مسلك أهل البحث ، فقال في مقدمة الأسفار ص٤: (واني لاستغفر الله مما ضيعت شطراً من عمري من تتبع آراء المتفلسفة والمتجادلين من أهل الكلام ، وتدقيقاتهم وتعلم جربزتهم في القول وتفننهم في البحث) ·

ولئن اظهر الندم والأسف على ما ضيع في هذه المرحلة من الوقت ، فانه قد استفاد منها كثيراً للمرحلة الأخيرة من حياته ، وهي دور التأليف الذي جمع فيه بين المسلك البحثي والمسلك العرفاني ، وسنذكره في البحث الآتي (مدرسته العلمية) ·

على انه في هذه المرحلة لم يسلك مسلكاً بحثياً صرفاً ، بل كان مشوباً بالمسلك العرفاني وان كان بعد لم ينضج عنده ، ولذا كان يقول بوحدة الوجود فيها وألف فيها رسالة طرح الكونين[٣] في وحدة الوجود على ما سيأتي · ومن هذا القول وامثاله مما كان لا يتورع من التصريح به والاعلان بتحبيذه كان مضايقاً من الناس الذين اشرقوه بريقه جزعا ، على ما صرح به في عدة مناسبات في كتبه ، ويشير بها الى هذه المرحلة الاولى بالذات · فالتجأ الى ان يفر بنفسه منهم وينتقل الى :

(المرحلة الثانية) · وهي دور العزلة والانقطاع الى العبادة في بعض الجبال النائية ، وقيل انها (كهيك) من قرى قم[٤] وانه استقام في هذه العزلة خمسة عشر عاماً · وهي مدة طويلة · وقد حكى لنا قصة هذه الفترة من حياته في مقدمة الاسفار وغيرها ، فانه — كما يقول — لما رأى الحال على ذلك المنوال من خلو الديار من اهل المعرفة وضياع السير العادلة واشاعة الآراء الباطلة ، ضرب صفحاً عن ابناء الزمان والتجأ الى ان ينزوي في بعض نواحي الديار ، منكسر البال منقطع الال متوفراً الى العبادة ، لا على درس يلقيه ولا تأليف يتصرف فيه ·

ويعلل عدم توفره على الدرس والتأليف — على عادته في التسجيع — بأن هذه امور تحتاج الى تصفية الفكر وتهذيب الخيال عما يوجب الملال والاختلال ، وتحتاج الى فراغ البال · ولا تحصل هذه الاشياء لمن يسمع ويرى من اهل الزمان من قلة الانصاف وكثرة الاعتساف ، وخفض الاعالي والافاضل ورفع الاداني والارازل ، وظهور الجاهل والعامي على صورة العالم النحرير وهيئة الحبر الخبير ، الى غير ذلك من القبائح والمفاسد ·

وهكذا يتشكى من ابناء زمانه (ومثلهم ابناء كل زمان) ، ولم يبين نوع تلك الاعتسافات التي كان يلاقيها · ولكنها على كل حال ارهقته حتى طفق يرتئ بين ان يصول بيد جذاء (وما ادري هل كان يريد ان يعارك ابناء الزمان بالسيف ويجاهدهم ؟) ، او يصبر على طخية عمياء · فرأى بالاخير ان الصبر على هاتى احجى ، فصبر ، وفي العين قذى وفي الحلق

شذى ، اتباعاً – كما قال – لسيرة امير المؤمنين (ع) واقتداء به فامسك عن الاشتغال بالناس ، واختار العزلة والاستتاد زمناً مديداً وامداً بعيداً (وقد قلنا ان هذا الامد البعيد قدر بـ ١٥ عاماً) ٠

وهو في كل هذا الامد البعيد ليس له شغل وعمل الا العبادة والمجاهدات والرياضات ، متوجهاً توجهاً غريزياً الى مسبب الاسباب ، ومتضرعاً تضرعاً جبلياً الى مسهل الامور الصعاب – على حد تعبيره – وهو يعتقد ان الانسان يتمكن من الحصول على العلم اللدني والانكشاف اليقيني ، بطول المجاهدات والانقطاع الى الله تعالى ، بعد تصفية الباطن ورفع الحجب عن النفس ٠ لذلك قال نتيجة لتلك العزلة: (اشتعلت نفسي لطول المجاهدات ، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً ، ففاضت عليها انوار الملكوت وحلت بها خبايا الجبروت ، ولحقتها الاضواء الاحدية وتداركتها الالطاف الالهية ٠ بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان ٠٠٠) ٠ وهكذا يكرر هذا المعنى في كثير من مؤلفاته ٠

ولما حصلت له هذه الحالة النفسية نتيجة لتلك العزلة – انفتح له ان ينتقل الى :

(المرحلة الثالثة) ٠ وهي دور التأليف ، إذ الهمه الله تعالى الافاضة مما شعر به (في المرحلة الثانية) جرعة للعطاش الطالبين ، فبلغ الكتاب اجله ، واراد الله تقديمه وقد كان اجله – هكذا يقول – ٠ ورأى ان يخرجه من القوة الى الفعل ٠ ونهضت عزيمته بعد ما كانت قاعدة واهتز الخامد من نشاطه ٠

فصنف كتاباً الهيأ ، ويعني به الأسفار ٠ وهو أول كتبه بعد تلك العزلة الطويلة ويظهر انه اشتغل في تأليفه وهو لا يزال في موطن عزلته[٥] ٠

ولم يصنف كتاباً قبله – فيما عثرنا على نصوصه – غير ذلك ثلاث رسائل ، اذ أشار إليها في الأسفار ، وهي رسالة طرح الكونين (١٠:١) ورسالة حل الإشكالات الفلكية في الإرادة الجغرافية (١٧٦:١) ورسالة حدوث العالم (٢٣٣:١) ، وان كان هذا ليس دليلاً وحده على سبقها على الأسفار بمجرد الإشارة إليها فيه ، لأنه في رسالة الحدوث أيضا يشير إلى الأسفار بنفسه ، والى الشواهد الربوبية مع انه قيل إنه آخر مؤلفاته ، وذلك ص٣٢ من الرسالة ٠

ولعله يدخل الإشارة إلى كتبه الأخرى بعد تأليف الكتاب بمدة ، فذكر الإشارة إلى كتاب في كتاب آخر لا يعني سبق تأليف ما أشار إليه

وفيما أظن ان الرسالة الوحيدة التي سبق تأليف الأسفار ووقعت في المرحلة الأولى ، هي رسالة (سريان الوجود) التي سيأتي ذكرها في مؤلفاته ، لاشتمالها على آراء في الوجود عدل عنها في الأسفار ، كما أظن أنها نفس رسالة (طرح الكونين) ٠

وعلى كل حال ، فان كتاب (الأسفار) هو أول مصنفاته في المرحلة الثالثة من حياته وهي مرحلة التأليف ٠ وقد شحنه بكل ما عنده من أفكار وآراء ومكاشفات وشواهد ربوبية وواردات قلبية ومشاعر إلهية ٠ وكل كتاب ألفه وكل رسالة صنعها بعد ذلك فالجميع مجرد منه ، ومقتبس من عباراته وآرائه ٠ ولذا قلنا انه ألام لباقي مؤلفاته ، حتى كتب

التفسير التي ألفها — على ما يظهر — لغرض تطبيق فلسفته على القران الكريم ٠

وإذا انتهينا إلى هنا فانه يحسن بنا أن نتحدث عن مدرسته العلمية التي كان يدعو إليها ، والى الملتقى في الفصل الآتي ٠

٣/مدرسته العلمية الجديدة

وهذا من البحوث التي تناولت منزلة المترجم له ونشأته العلميتين ومدرسته الجديدة في الحكمة ومنهجه التأليفي ومؤلفاته والمؤاخذات عليه وكل فصل منها بحث مستفيض قائم بذاته وهذه الابحاث بمجموعها تؤلف مقدمة لكتابه الكبير (الاسفار) الذي هو الان تحت الطبع بطهران المحرر

ان فيلسوفنا يرى ان المعرفة تحصل من طريقين : طريق البحث والتعلم والتعليم الذي يستند على الاقيسة والمقدمات المنطقية ، وطريق العلم اللدني الذي يحصل من طريق الالهام والكشف والحدس ٠ وهذا الاخير انما يحصل بسبب تجريد النفس عن شهواتها ولذائذها والتخلص من ادران الدنيا واوساخها ، فتنجلي مرآتها الصقيلة وتنطبع عليها صور حقائق الاشياء كما هي ، اذ تتحد النفس بالعقل الفعال حينما تحدث لها فطرة ثانية بذلك ٠

ويرى ان الفرق بين العلمين كالفرق بين علم من يعلم الحلاوة بالوصف وبين علم من يعلمها بالذوق ٠ وان الثاني اقوى واحكم ، ويمكن وقوعه ، بل هو واقع للانبياء والاوصياء والاولياء والعرفاء ٠

قال في مفاتيح الغيب في المشهد الثامن من المفتاح الثالث : (ان كثير من المنتسبين الى العلم ينكرون العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه السلاك والعرفاء . وهو اقوى واحكم من سائر العلوم ، قائلين : ما معنى العلم الا الذي يحصل من تعلم او فكر وروية) .

بل ذم مجرد الانظار البحثية اشد ذم ، فقال في الاسفار (ج١ ص٧٥) : (... لا على مجرد الانظار البحثية التي ستلعب بالمعولين عليها الشكوك ، ويلعن اللاحق منهم فيها السابق ، ولم يتصالحوا عليها ، بل كلما دخلت امه لعنت اختها) . ثم اثنى على كبار الحكماء والاولياء في مشاهداتهم النورية ، وذلك في موضوع المثل الأفلاطونية ، فقال : (واكتفوا فيه بمجرد المشاهدات الصريحة المتكررة التي وقعت لهم فحكوها لغيرهم ، لكن يحصل للانسان الاعتماد على ما اتفقوا عليه والجزم بما شاهدوه ثم ذكروه .

وليس لاحد ان يناظرهم فيه . وكيف واذا اعتبروا اوضاع الكواكب واعداد الافلاك ، بناء على ترصد شخص كأبرخس او اشخاص بوسيلة الحس المثار للغلط والطغيان ، فبأن يعتبروا اقوال فحول الفلسفة المبتنية على ارصادهم العقلية المتكررة التي لا تحتمل الخطأ كان أحرى) .

وهذا غاية ما يمكن ان يقال في الثناء على الارصاد العقلية : ليس لاحد ان ينازع فيها ! لاتحتمل الخطأ ! ان هذا شيء عجيب !

ولكنه مع قوة عقيدته هذه في المكاشفات العرفانية يرى انه لا غنى للانسان السالك باحد الطريقين عن الاخر . وقد كرر ذلك في كتبه

واكده مرة بعد اخرى ، فاصر على ضرورة الجمع بينهما كما جمع هو ، وتفرد ـ بهذا الجمع فبلغ ما لم يبلغه احد من فلاسفة العصور الاسلامية ٠

قال في المبدأ والمعاد ص٢٧٨ : فاولى ان يرجع الى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء والمليين من العرفاء) ٠

ثم قال متبجحاً : (فان ما تيسر لنا بفضل الله ورحمته ما وصلنا اليه بفضله وجوده من خلاصة اسرار المبدأ والمعاد ما لست اظن ان قد وصل اليه احد ممن اعرفه من شيعة المشائين ومتأخريهم دون ائمتهم ومتقدميهم كأرسطو ومن سبقه ٠ ولا ازعم ان كان يقدر على اثباته بقوة البحث و البرهان شخص من المعروفين بالمكاشفة والعرفان من مشايخ الصوفية من سابقيهم ولاحقيهم) ٠

اذن لا المشاؤن بلغوا ما بلغه بالمكاشفة ، ولا الاشراقيون و العرفاء بلغوا ما بلغه بالبحث والبرهان ٠ فهو المتفرد بجمعه من مسلك الطائفتين والتوفيق بينهما ٠

ثم قال ليؤكد سر تفوقه في منهجه : (وظني ان هذه الحرية حصلت لهذا العبد المرحوم من الامة المرحومة ، من الواهب العظيم والجواد الرحيم ، لشدة اشتغاله بهذا المطلب العالي وكثرة احتماله من الجهلة والارذال وقلة شفقة الناس في حقه وعدم التفاتهم الى جانبه ، حتى انه كان في الدنيا مدة مديدة ـ كأنه يشير الى دور العزلة ـ كئيباً حزيناً ما كان له عند الناس رتبة ادنى من آحاد طلبة العلم ، ولا عند علمائهم الذين اكثرهم اشقى من الجهال قدر اقل تلامذتهم) ٠

وصرح هو مرة في الاسفار (٤-١٦١) بجمعه بين الطريقين اذ علل اختلافه مع بعض مشايخ الصوفية في بعض اقوالهم ، فقال: (لأن من عادة الصوفية الاقتصار على مجرد الذوق والوجدان فيما حكموا عليه . واما نحن فلا نعتمد كل الاعتماد على ما لا برهان عليه قطعياً ، ولا نذكره في كتبنا الحكمية) .

ولم يزل يشنع على من يستعمل احد المسلكين دون الآخر ، كقوله في مفاتيح الغيب ص٣ ومثله في الاسفار ص٤: (ولا تشتغل بترهات الصوفية ولا تركن الى اقاويل المتفلسفة ، وهم الذين اذا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن . وقانا الله واياك – ياخليلي – من شر هاتين الطائفتين ولا جمع ، بيننا وبينهم طرفة عين) .

بل عبر في مقدمة تفسير الفاتحة على الطائفة الاولى بالمبتدعين المضلين ، وعن الطائفة الثانية بالمعطلين الضالين . ثم قال: (لان كلهم من اولياء الشياطين وابناء الظلمات واهل الطاغوت) .

اذن فلسفته التي يدعو اليها ويلحف فيها هي الجمع بين طريقة المشائين وطريقة الاشراقيين والتوفيق بينهما . وعلى هذا تتبنى مدرسته العلمية في تعليمه وارشاده لابنائه الروحانيين ولاجلها الف معظم كتبه لاسيما الاسفار، اذ قال في مقدمته آخر ص٣: (قد اندمجت فيه العلوم التألهية في الحكمة البحثية ، وتدرعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التعليمية) ولا يجد غنى للسالك باحدى الطريقين عن الاخرى ، كما سبق .

وهـذه فـي الحقيقـة مدرسـة جديـدة للفلسـفة الآلهيـة لـم يعهـد لأحـد قبلـه سلوكها والدعوة اليها صراحة ، الا ماقد يظن في استاذه السيد الداماد ، فيكون عنه اخذها فجلاها وبين معالمها ، قال لم يكن فيها هو المجدد المؤسس فهو الموضح لها المشيد لاركانها المعلن بها ·

ثم بعد هذا يرى ان الشرع والعقل متطابقان في جميع المسائل الحكميات (الاسفار ج٤ ص٧٥) · واعقب هذا التصريح بقوله: (حاشا الشريعة الحقة الآلهية البيضاء ان تكون احكامها مصادفة للمعارف اليقينية الضرورية · تباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة) ·

وهذه مدرسة اخرى له في المعرفة ، وهي التوفيق بين الشرع الاسلامي وبين الفلسفة اليقينية وعلى هذا لم يفتأ يستشهد على كل مسألة حكمية عويصة بالآيات القرآنية والاثار الاسلامية ، وهو بارع حقا في تطبيق ما يستشد به منها على فلسفته ·

والحق انه في هذه المدرسة مجدد مؤسس ايضاً لم يعرف له نظير فيها · وحاشا ان يكون استشهاده بالادلة السمعية ـ كما يسميها ـ رياء لغرض دفع دعاية المتهمين بالخروج على الشرع ، بل هو دائماً يتبجح بانه لا يرى احداً يفهم اسرار القران الكريم والسنة كما يفهمها هو ، ويبالغ في التوفيق بين فلسفته والدين مبالغة تجعله ابعد ما يكون عن الرياء والدجل ، حتى يكاد ان يجعل كتبه الفلسفية تفسيراً للدين ، وكتبه الدينية ـ كتفسير القرآن الكريم وشرح اصول الكافي ـ تفسيراً للفلسفة· ولذا نقول ان كتبه في التفسير وشرح الحديث هي امتداد لفلسفته ·

والحاصل ان الذي نستوضحه من اسلوبه في التأليف ان له فكرة واحدة يسعى اليها جاهداً في كل ما ألف ، وهي ما تلخصه عبارته المتقدمة من (ان الشرع والعقل متطابقان) ولهذه الفكرة العميقة جزءان او طرفان: الطرف الاول تأييد العقل للشرع ، والطرف الثاني تأييد الشرع للعقل . ولكل من الطرفين جعل كتباً : فكتبه الفلسفية ألفها ويستهدف فيها تأييد ما جاء في الشرع الاسلامي بالفلسفة ، وكتبه الدينية ألفها ويستهدف فيها تأييد ما جاء في فلسفته بالشرع . فحق ان نعد كتبه الفلسفية كتباً دينية ونعد كتبه الدينية كتباً فلسفية . وهذا معنى ما قلناه آنفاً ان كتبه الدينية كانت امتداداً لفلسفته .

وهو بهذا الاسلوب — من المزج بين الفلسفة والدين والتوفيق بينهما سواء كان مصيباً او مخطئاً — كان صاحب مدرسة جديدة اخرى هو المؤسس لها حقاً ، وان كان الواضع لبذرتها الخواجا نصير الدين الطوسي في التوفيق بين الفلسفة والكلام .

بل في الحقيقة ان فيلسوفنا له مدرسة واحدة وهي الدعوة الى الجمع بين المشائية والاشراقية والاسلام . هذه العناصر الثلاثة هي اعمدة ابحاثه ومنهجه العلمي في مؤلفاته جعلت منه مؤسسا لمدرسة جديدة — بكل ما لهذه الكلمة من معنى في الفلسفة الالهية ، ويمثلها حق التمثيل من كتبه أسفاره الاربعة .

وبعد هذا ، وجب علينا ان نتكلم عن منهجه العلمي في مؤلفاته .

٤/منهجه العلمي في التأليف

وهـذا مـن البحـوث التـي تناولـت منزلـة المتـرجم لـه ونشـأته العلميتـين ومدرسـته الجديـدة فـي الحـكمـة ومنهجـه التـاليفي ومؤلفاتـه والمؤاخـذات عليـه · وكـل فصـل منهـا بحـث مسـتفيض قـائم بذاتـه ، وهـذه الابحـاث بمجموعهـا تؤلـف مقدمـة لكتابـه الكبيـر (الاسـفار) الـذي هـو الان تحـت الطبع بطهران ·

تتبنى فلسفته في كل ما ألف (حتى كتبه الدينية التي قلنـا انهـا جـزء مـن فلسـفته وامتـداد لهـا) علـى حصـر العلـوم الحقيقيـة والمعـارف اليقينيـة فـي العلـم بـالله وبصـفاته وملكـه وملكوتـه ، والعلـم بـاليوم الآخـر ومنازلـه ومقاماتـه ، لانـه يجـد ان الغايـة المطلوبـة – وكـم يكـرر ذلـك فـي كتبـه لاسيما في مقدماتها – هي تعليم ارتقاء الانسـان مـن حضـيض النقص الـى اوج الكمـال (الـذي لا حـد لـه بالنسـبة الـى الانسـان خاصـة مـن بيـن سـائر المخلوقـات) وبيـان كيفيـة سـفره الـى الله تعـالى ، قـال فـي الاسـفار عـن كتابه (١–٩): (غرضنا فيه بيان طريق الوصول الى الحق وكيفية السير الى الله) ·

ان هـذا الهـدف وحـده يبتنـي عليـه منـهج التـأليف فـي كـل كتبـه المطولـة والمختصـرة ، وهـو قطبهـا وعليـه تـدور رحاهـا ، حتـى كتبـه الدينيـة التـي يعنيه منها تطبيق الشرع في فلسفته ، كما سبق آنفا ·

ولهـذا الهـدف – حسـب تقريـره –٦– سـتة مقاصـد كالـدعائم والاصـول ، وثلاثة كاللواحق · وركز مؤلفاته على الدعائم ، وهي:

١) معرفة الحق الاول وصفاته وآثاره · وهو (فن الربوبيات) الذي هو جزء من (الفلسفة الكلية) · واذا بحث عن الفلسفة الكلية – كما في الاسفار – فالبحث عنها انما هو عنده لهذه الغاية ليس الا ·

٢) معرفة الصراط المستقيم ، ودرجات الصعود اليه تعالى ، وكيفية السلوك اليه · وهو (علم النفس) الذي هو جزء من (العلم الطبيعي) · واذا بحث عن العلم الطبيعي – كما في الاسفار ايضاً – فالبحث عنه لهذه الغاية عنده ·

٣) معرفة المعاد والمرجع اليه تعالي واحوال الواصلين اليه والى دار رحمته · وهو (علم المعاد) ·

هذه الدعائم الثلاث هي محور مؤلفاته عليها تدور ولها تستهدف · واما (اللواحق) فلم يفرد لها تأليفا ، وانما يذكرها عرضا وبالتبع في غضون اكثر مؤلفاته ، لانها لواحق تلك الدعائم · وهي:

١· – معرفة المبعوثين من عند الله لدعوة الخلق ونجاة النفس ، وهم قواد سفر الآخرة ورؤساء القوافل · يعني الانبياء والاوصياء ، بل الاولياء ·

٢· حكاية اقوال الجاحدين وكشف فضائحهم · وهم قطاع الطريق في سفر الاخرة ·

٣· تعليم عمارة المنازل والمراحل في ذلك السفر ، وكيفية اخذ الزاد والراحلة له ، والاستعداد برياضة المركب وعلف الدابة (يقصد بالمركب والدابة النفس) وهو الذي يسمى (علم الاخلاق) ·

وهو في تحصيل ذلك الهدف سلك الطريقة المتقدم ذكرها وهي الجمع بين المشائية والاشراقية والاسلام ، أي انه يذكر الادلة المنطقية على

مطلوبه ، ويذكر مكاشفاته ومشاهداته العرفانية ويستشهد بالادلة السمعية ٠

وهذا المنهج يسلكه في اكثر كتبه لاسيما الاسفار امها نعم بعض المؤلفات خاصة بالمسلك العرفاني ، والبعض الاخر بالمسلك البحثي ٠

اما المختصة بالمسلك العرفاني فهي الشواهد الربوبية والعرشية واسرار الايات والواردات القلبية ، على ما بينها من الاختلاف في التطوير والاختصار ٠ واسماؤها تنم عن ذوقها العرفاني ٠ وفي خصوص الاخير (الواردات القلبية) سلك مسلك الكهان المتحذلقين في التسجيع والتعقير وتلمس الاغراب ، كأنما يريد: ان يظهرها بمظهر الالهامات الالهية التي ورد بها آمر قلب ودفعت اليها اشارة مشير غيب – على حد تعبيره في مقدمة الشواهد ص٣ – فامتثل ذلك الامر والمأمور معنور ويبدو انه يريد ان يقول انه فاقد للاختيار وانه مجبور ٠ فهي تشبه ان تكون عنده من نحو النصوص الدينية والاحاديث القدسية ، كما يرى هو ذلك في كلمات ابن عربي ٠ قال في مقدمة العرشية : (بل هذه قوابس مقتبسة من مشكاة النبوة والولاية مستخرجة من ينابيع الكتاب والسنة ، من غير ان تكتسب من مناولة الباحثين ومزاولة صحبة المعلمين) ٠

وسلك في شرحه للهداية الاثيرية وفي شرحه لآلهيات الشفا مسلك البحث الصرف اتباعاً لطريقة المتن ٠ ولذا لما ندت منه بادرة في السلوك العرفاني مرة في شرحه للشفا اعتذر عن ذلك ، فقال ص١٦٧ من هذا الشرح: (وليعذرنا اخوان البحث في الخروج عن طورهم تشوقاً الى طور المكاشفة وتحننا الى عالم الملكوت) ٠

ثم هو حينها يسلك الطريقين في تأليفه (لاسيما في الاسفار) يشرع اولا في البحث على طريقة النظار وأهل البحث ثم يذكر مشاهداته العرفانية ومكاشفاته اليقينية شفقة على المتعلمين كما يقول · وهي عادة الفلاسفة لسهولة التعليم (الاسفار ج١ ص١٨) ثم قال ص١٩ : ونحن ايضا سالكو هذا المنهج في اكثر مقاصدنا الخاصة ، حيث سلكا اولا مسلك القوم في اوائل الابحاث واواسطها ثم نفترق عنهم في الغايات ، لئلا تنبو الطبايع عما نحن بصدده في اول الامر بل يحصل لهم الاستيناس به ، ويقع في اسماعهم كلامنا موقع القبول ، اشفاقا بهم) ·

وفي الحقيقة ان هذا المنهج العلمي هو متفرد به بل هو المؤسس لمدرسته كما قلنا · ولم يعهد كالاسفار كتاب جمع بين الطريقين باوسع ما يمكن من الجمع والتوفيق ، فاحتشدت فيه آراء الناس على اختلافهم مشاربهم ، ومحاسبتها حساباً دقيقاً علمياً مع نصوع العبارة ورصانتها وسلامتها وحسن اداء المقاصد وللصراحة في ايضاحها · والمعهود في كتب الفلسفة الغموض والرمز والتعقيد ·

فسهولة التعليم التي اشار اليها بريئة منه كتب الفلسفة المتقدمة عليه ، بل المتأخرة عنه · كيف ومن تعاليمهم ان يكتموا ارائهم الا على فئة خاصة من تلاميذهم يفتحون لهم رموزهم ، حيث يجدون منهم استعداداً لفهم مقاصدهم والاستنارة بها ·

وصاحبنا هو ايضا يوصي بهذه الوصية في كتمان مطالبه على الجلود الميتة[٧] اتباعاً للحكماء الكبار اولي الايدي والابصار ، كما يقول ،

ولكن لم يأخذ بها في اتخاذ الرمز والتعقيد والغموض سبيلاً لكتمان آرائه لاسيما في الاسفار · بل بالغ في تصوير آرائه باختلاف العبارات والتكرار ، حسبما اوتي من مقدرة بيانية وحسبما يسعه موضوعه من ادائه بالالفاظ وهو معبر موهوب لعله لم نعهد له نظيراً في عصره من امثاله من الحكماء واذا كان استاذه الجليل السيد الداماد يسمي امير البيان ، فان تلميذه ناف عليه وكان اكثر منه براعة وتمكنا من البيان السهل وانما كان امتياز السيد باستعمال المجاز والكنايات والالفاظ المتخيرة والتسجيع ولاجله اعطي هذا اللقب امير البيان ، وتلميذه في نظري احق به واولى ·

وان كان هو يرى[٨] (ان الحقائق لا يمكن فهمها عن مجرد الالفاظ فان الاصطلاحات وطبايع اللغات مختلفة) ولقد احسن جداً في هذا التعبير الحكيم ، وتلك حقيقة واقعة معروفة ، لكنه لم يدخر وسعا في تقريب مقاصده من مكان قريب وبعيد في كتابه الاسفار ، وجاء فيه باقصى جهد الكاتب البليغ في توضيحها ووفق توفيقاً لم يتهيأ لمثله ·

فجاء — كما قال في مقدمته آخر ص٣ — بحمد الله كلاما لا عوج فيه ولا ارتياب ولا لجلجة ولا اضطراب يعتريه ، حافظاً للاوضاع ، رامزاً مشبعا في مقام الرمز والاشباع ، قريباً من الافهام في نهاية علوه ، رفيعاً عالياً في المقام مع غاية دنوه ·

ثم قال: (واستعملت المعاني الغامضة في الالفاظ القريبة من الاسماع) ·

ثم قال: (انظر بعين عقلك الى معانيه هل تنظر فيه من قصور ؟ ثم ارجع البصر كرتين الى الفاظه هل ترى فيها من فطور) ·

في الحقيقة ان كتابه الاسفار جدير بهذا الوصف ، لاسيما قوله فيه (قريباً من الافهام في نهاية علوه) فان قربه من الافهام باعتبار سهولة عباراته ورصانتها ، ونهاية علوه باعتبار ما حوى من الآراء الدقيقة والافكار السامية التي هي في مستوى كبار العلماء المنتهين ، فانه كما قال في المبدأ والمعاد عنه ص٣: (وانا عملنا لمن له فضل قوة لتحصيل الكمال على وجه ابلغ واوفر كتاباً جامعاً لفنون العلوم الكمالية التي هي ميدان لاصحاب الفكر وفيها جولان لارباب النظر سميناه الاسفار الاربعة) ·

٥/وحدة الوجود

وهذا من البحوث الفلسفية الجليلة التي تناولت سيرة الحكيم المتأله صدر الدين الشيرازي واتجاهه العلمي وهذه الابحاث بمجموعها تؤلف مقدمة لكتابه الكبير (الاسفار) الذي هو الان تحت الطبع بطهران ولكن الناشرين توقفوا من نشر فصول (المؤاخذات عليه) خشية ان تؤثر على سمعة الكتاب ومؤلفه ، بينما ان هذه الفصول تجلي اتجاهه الفكري · وسننشرها تباعا في (النجف) اخذا بحرية الرأي · المحرر

كثر التشنيع على هذا الرجل بعد وفاته عند رجال الدين حتى كان اسمه ومؤلفاته مثار السخط والاشمئزاز · ويكفي ان تعرف ان الشيخ احمد

الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤٣ كفره الناس لميله الى بعض اراء صاحبنا[٩] . ومن المفارقات العجيبة في تلك العصور ان الاحسائي نفسه كان يقول بكفر صاحبنا ويشنع عليه . وبلية الاحسائي كلها انه قرأ كتبه من دون حضور على استاذ فلم يفهمها كما يجب ، وكان ذكياً معتمداً بنفسه ، فاصيب بداء الغرور ، فاشتط من جهته في تأثره بها عقيدة ، واشتط من جهة اخرى في بحث آرائه ناقداً . وفي كلتا الجهتين كان متورطاً .

بل صاحبنا قد لاقى من العنت في زمانه ما دفعه الى اعلان تنمره من اهله والسخط عليهم في عدة تصريحات ثائرة عنيفة في اكثر كتبه ، لاسيما في مقدماتها . بل الجأه ذلك الى ان يهرب بنفسه فينزوي في بعض النواحي البعيدة ، على ما سبق ومن امض التشنيعات عليه في نظري ان يقال[١٠] في صدد الثناء على ولده ميرزا ابراهيم : (وهو في الحقيقة مصداق يخرج الحي من الميت) . وعلل ذلك بانه (كان على ضد طريقة والده[١١] في التصوف والحكمة) بينما ان الوالد هذا لا يرى في غير الحكمة والعرفان حياة للنفس الانسانية ، بل من يتجرد عن ذلك يقسو عليهم فيعبر عنهم باهل الجلود الميتة . ومن اللازم ان نشير الى جملة من المؤاخذات البارزة التي سجلت عليه من قبل المترجمين له . احدها رأيه في وحدة الوجود ان الرأي المعروف (بوحدة الوجود) على اجماله يعتبر من سمات المتصوفين التي تدفعهم الى دعوى الشطحات والمواجد وعلم المغيبات وما اليها ، ويعد من اكبر الوصمات فيهم الملازمة لطعنهم

بالكفر والزندقة · وهو يساوق ¯ عند الناس ¯ مقالة الحلول والتناسخ · وهذه الكلمات وحدها مدعاة لاثارة الشعور بكراهية القائل بها ، وللاستنكار لاقواله والتسرع بنسبته الى الكفر ، وان لم تتحدد معانيها ومفاهيمها بالضبط ، ولم تعرف العامة السر في التكفير بها ·

قال الشيخ احمد الاحسائي في شرحه للعرشية ناقداً للمولى محسن الفيض ص١٢: (فاذا لم يكن قوله هذا قولا بوحدة الوجود المجتمع بين العلماء على تكفير معتقدها ، فما القول بوحدة الوجود اذن؟) · وموضع الشاهد نقله الاجماع على تكفير معتقد وحدة الوجود ·

اما السر في التكفير بها ، فقد قيل: ان لازم هذه المقالة ان يكون امير المؤمنين عليه السلام وقاتله ابن ملجم مثلا ممدوحين ناجيين · وكذا موسى وفرعون ، والحسين عليه السلام ويزيد ، وهكذا الخلق كلهم سيدهم وشقيهم اما لا شقي او لا سعيد · وقيل: ان لازمها ان يتصف الله تعالى بصفات الممكنات او تتصف الممكنات بصفات الواجب ، او تكون هو اياها او هي اياه ، فتكون واجبة الوجود او معبودة فتصح العبادة لفرعون والاصنام والشمس والقمر وهكذا · قال الشيخ احمد الاحسائي في شرح العرشية ص١٧ مخاطباً للمولى محسن الفيض متهمكاً: (قل انا الله ، ولا تخف فانك بالتصريح تستريح وتريح) ·

وعلى كل حال فقد اقترنت مقالة (وحدة الوجود) باطار من صفة المروق عن الدين والكفر والزندقة ، مع ان لها ¯ كما سيأتي ¯ عدة معان ربما لا يكون لاحدها تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها · ولكن لاصبر للرأي العام · على التكفير في ذلك ، والتفكيك بين المعاني وتوجيه كلام

القائل بها · ولذلك كان يتحاشى صاحبنا صدر المتألهين التعبير بعبارة (وحدة الوجود) تعبيراً صريحاً واضحاً اما تلامذة مدرسته فقد بالغوا في تصوير القول بالوحدة على الوجه الذي لا يلزم منه تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها وانه ليس المراد من الوحدة الاتحاد الذي يفهم من ظاهر الكلمة وعندهم ان هذا المعنى لا يفهمه الا الاوحدي من الاذكياء والفضلاء · واذا انطلى على العامة واشباه العامة لفظ (وحدة الوجود) فذلك شأن من لا يفهم الاسرار الفلسفية ، فيشنع على قائلها · وقال هو في تفسير سورة البقرة ص٢٧٨ : (ان اكثر الناس يتنازعون في مسألة لا يعرفون بعد موضوعها ولا محمولها ، فقبل تحرير محل النزاع يخاصم بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضا) ويتندرون بقصة ذلك الشيخ محمد كاظم في الروضة الحسينية حينما كان في تعقيبه بعد صلاة الصبح يلعن بتسبيحة كاملة الملا صدرا ، وكل واحد من جماعة آخرين بتسبيحة كاملة منهم المولى محراب (وهو الحكيم المولى محراب على الاصفهاني من اعلام القرن الثاني عشر) · وكان هذا الحكيم صدفة جالساً الى جنبه يستمع الى هذه التسبيحات القدسية ، وهو لا يعرفه – وقيل: انه جاء متخفياً فاراً الى كربلاء من اصفهان بعد تكفيره فيها – فقال للشيخ: لماذا تلعن هؤلاء ؟ أتعرفهم ؟ ، فقال: لانهم يقولون بوحدة (واجب) الوجود فلم يفرق بين وحدة الوجود ووحدة واجب الوجود فقال له ببرودة دم متهكماً : حق من مثلك ان يلعن من يقول بوحدة (واجب) الوجود حتى لا ينشر مثل هذا الاعتقاد ·

وسواء صحت هذه القصة الطريفة ام لم تصح ، فانها ترمز عندهم الى عدة اشياء: (منها) عدم تمييز العامة للواضحات واضطهادهم للحكماء بما لا يعرفون و(منها) اللوم على الحكماء ان يصرحوا بما لم تتحمله عقول العامة ، ويحق عليهم اللعن من هذه الجهة ، و(منها) ان القول بوحدة الوجود الذي يذهب اليه هؤلاء العرفاء راجع في الحقيقة الى القول بوحدة واجب الوجود . أي ان التوحيد الحقيقي الذي لا يشاب بالشرك لا يصح الا اذا قلنا بوحدة الوجود ، لان التوحيد توحيد في العبادة وتوحيد في الخلق وتوحيد في الوجود . ويعبر عنه صدر المتألهين في كثير من المواقع بالتوحيد الخاص او توحيد الاخصي . فاذا كان التوحيد كفراً فعلى الاسلام السلام !

بل يقولون: اذا نفينا وحدة الوجود التي يفسرها صدر المتألهين يلزمنا القول بالشرك في الحقيقة . وهو دائماً يقول: انما الناس يعبدون اصناماً ينحتونها باوهامهم ، ويستشهد[١٢] بكلام لامامنا الباقر عليه السلام : (كل ما ميزتموه باوهامكم في ادق معانيه فهو مصنوع مثلكم مردود اليكم) .

ولاجل ان نجلي غرض صدر المتألهين وتلاميذ مدرسته في هذا الباب ، نقول: ان الاقوال في المسألة يمكن تصويرها في ثلاثة وجوه:

١. تعدد الوجود والموجود . وهذا هو الذي يتصوره عموم الناس .

٢. وحدة الوجود والموجود ، وان التعدد الذي يبدو للعامة في الوجود والموجود انما هو تعدد ظاهري مجازي وفي الحقيقة لا تعدد لكل منهما

· وهذا هو المذهب المعروف المنسوب الى المتصوفة ، الذي قال عنه الاحسائي ان العلماء مجموعون على تكفير معتقده باعتبار انه يفهم منه الحلول او الاتحاد بين الخلق والمخلوق ·

٠٣ وحدة الوجود وتعدد الموجود · وهو المنسوب الى بعض المتألهين ، كما حكاه في الاسفار (١ : ١٦) ورد عليه من عدة وجوه ، ولكنه نفسه في رسالة سريان الوجود يظهر منه الميل اليه ، ومن هنا نستظهر ان هذه الرسالة الفها في مرحلته الاولى من حياته العلمية · قال فيها ص١٣٨ عن الممكنات: (فهي موجودات متعددة متكثرة في الخارج ولها كثرة حقيقية عينية ، فالوُجود واحد والموجود متعدد متكثر) · هذه الاحتمالات الثلاثة المتصورة كل منها به قائل ، ولم يبق الا الاحتمال الرابع وهو (تعدد الوجود ووحدة الموجود) فليس به قائل لوضوح استحالته اما الذي استقر عليه رائ فيلسوفنا في كتاب الاسفار وغيره ، فلا يتفق مع تلك الاقوال الثلاثة كلها ، بل ان لم يكن قولا رابعا فهو جمع بين الاقوال ، يعني انه يقول ان الاحتمالات الاربعة كلها صحيحة ويجب القول بها جمعاً · فان الذي يراه ان الوجود متعدد حقيقة ، وكذا الموجود متعدد حقيقة ، ولكنه في عين الحال الوجود واحد حقيقة والموجود ايضاً واحد حقيقة فان شئت قلت بتعدد الوجود والموجود او بوحدة الوجود والموجود او بوحدة الوجود وتعدد الموجود او بتعدد الوجود ووحدة الموجود فكله صحيح ولكن بشرط الجمع بين هذه الاقوال كلها · وهذا من العجيب حقاً ، ويبدو انه متهافت متناقض ، غير انه يصر عليه كل الاصرار ويقول ان فهمه يحتاج الى فطرة ثانية ·

ويرتفع التهافت الظاهر بان يكون معنى الوجود متعددا حقيقة انها الحقيقة في قبال المجاز اللغوي ، ومعنى ان الوجود واحد حقيقة انها الحقيقة في قبال المجاز العرفاني · قال في المبدأ والمعاد ص ١١٤ : (ليس اطلاق الوجود على ما سوى الله مجازا لغوياً ، بل مجازاً عرفانياً عند اهل الله) ·

ولكن يجد (ان العبارة قاصرة عن اداء هذا المقصد لغموضه ودقة مسلكه وبعد غوره ، فيشتبه على الاذهان ويختلط عند العقول · ولذا طعنوا في كلام الاكابر بانه مما يصادم العقل الصريح والبرهان الصحيح)[١٣] ·

ونكته الغموض في هذا المسلك وبعد غوره انه يرى ان الوحدة في الوجود والموجود عين الكثرة ، والكثرة فيهما عين الوحدة · وهذا هو معنى المجاز العرفاني في التعدد ، لا(ان هويات الممكنات امور اعتبارية محضة وحقائقها اوهام وخيالات لا تحصل لها الا بحسب الاعتبار)[١٤] ، فان هذا ليس معنى المجاز الذي يراه ·

ولما كانت الوحدة عين الكثرة ، فان الظاهريين لما نظروا الى الوجود والموجود بعين واحدة وهي اليسرى واقتصروا عليها رأوا الكثرة والتعدد · والمتصوفون لما نظروا اليهما بعين ثانية وهي اليمنى واقتصروا عليها رأوا الوحدة ولم يروا سوى الله (اما الكامل الراسخ فهو ذو العينين السليمتين: ويعلم ان كل ممكن زوج تركيبي له وجهان ، وجه الى نفسه ووجه الى ربه ، فبالعين اليمنى ينظر الى وجه الحق – أي وجه ربه – فيعلم انه الفائض على كل شيء والظاهر في كل شيء فيعود اليه كل خير وكمال وفضيلة

وجمال · وبالعين اليسرى ينظر الى الخلق – أي وجه نفسه – ويعلم انه ليس له حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ولا شأن الا قابلية الشؤن والتجليات ، وفي ذواتها اعدام ونواقص ، قائلا لسان مقاله طبق لسان حاله :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الامر
فكأنه خمر ولا قدح وكأنه قدح ولا خمر)[١٥]

والسر في ذلك : (ان الوجودات وان تكثرت وتمايزت الا انها من مراتب تعينات الحق الاول وظهورات نوره وشؤنات ذاته ، لا انها امور مستقلة وذوات منفصلة)[١٦]

باعتبار انها معلولة للحق الاول والمعلول طور من اطوار العلة وشأن من شؤنها (فالوجود الحقيقي ظاهر بذاته بجميع انواع الظهور ومظهر لغيره ، وبه تظهر الماهيات ، وله ، ومعه ، وفيه ، ومنه · ولولا ظهوره في ذوات الاكوان واظهاره لنفسه بالذات ولها بالعرض لما كانت ظاهرة موجودة بوجه من الوجوه ، بل كانت باقية في حجاب العدم وظلمة الاختفاء)[١٧] .

ويستشهد دائماً بكلمات امير المؤمنين عليه السلام لاداء هذا الغرض كقوله : (هو مع كل شيء لا بمقارنة – وفي كلمة اخر لا بممازجة – وغير كل شيء لا بمزايلة – وفي حكمة اخرى لا بمباينة –) لان وجوده منبسط على جميع الكائنات ، وجميع الموجودات انما هي رشحات نوره ، وان كان كل موجود بحدوده العدمية وبقيوده الامكانية غير الله تعالى · ويضرب لذلك امثلة في الاسفار لتقريب هذا المعنى يطول ذكرها ،

كتقريبه بانبساط نور الشمس على المرئيات ، وبصورة المرآة وبامواج البحر ·

وعلى كل حال ، ففيلسوفنا يتفق مع القائلين بتعدد الوجود والموجود من دون تجوز · ولكن (لما كان كل وجود معلولا فهو في حد ذاته متعلق بغيره ومرتبط به ، فيجب ان تكون ذاته الوجودية ذاتا تعلقيا ووجوده وجودا تعلقيا ، لا بمعنى انه شيء وذلك الشيء موصوف بالتعلق ، بل هو بما هو عين معنى التعلق بشيء)[١٨] ·

الى ان يقول: (ولا يمكن للعقل ان يشير في المعلول الى هوية منفصلة عن هوية موجده حتى تكون هنك هويتان مستقلتان في الاشارة العقلية احداهما مفيضة والاخرى مفاضة) ·

ويتفق ايضاً مع المتصوفة في القول بوحدة الوجود والموجود من دون تجوز ، ولكن لا بأن يفهم من ذلك الحلول والاتحاد لان ذلك معناه الاثنينية في اصل الوجود ولا بان يفهم ان الممكنات اعتبارية محضة ، كيف (وان لكل منها آثار مخصوصة واحكاماً خاصة ، ولا نعني بالحقيقة الا ما يكون مبدأ أثر خارجي ولا نعني بالكثرة الا ما يوجب تعدد الاحكام والآثار ، فكيف يكون الممكن لا شيئاً في الخارج ولا موجوداً فيه)[١٩] ·والحاصل (اذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات الى حقيقة واحدة بسيطة ظهر ان لجميع الموجودات حقيقة واحدة – هي الموجدة لها – ذاته بذاته وجود وموجود وموجد · فهو الحقيقة ، والباقي شؤونه) ·فهذا هو معنى وحدة الوجود والموجود : ان الوجود والموجود المستغني بذاته

واحد لا شريك له ، وهو الذي يصدق عليه انه وجود وموجود وموجد بنفس ذاته لا بجعل جاعل وليس هو الا الواجب تعالى ٠ وما سواه فهو محض الفقر والفاقة والتعلق والارتباط بالواجب ، لا استقلال له في الوجود ٠ وهذا معنى المجاز العرفاني ٠وفي الحقيقة ليس هذا قولا بوحدة الوجود ، ولا ينبغي التعبير عنه بوحدة الوجود ، كما لم يعبر هو ٠ وانما هو قول بالتوحيد الخالص ، الذي يسميه التوحيد الخاص او الأخصي ولسنا اعداء لكلمة (التوحيد) ، بل اعداء (الاتحاد) ٠قال في المشاعر ص٨٣ : (اياك ان تزل قدمك من استماع هذه العبارات وتتوهم ان نسبة الممكنات اليه تعالى بالحلول او الاتحاد ونحوهما ، هيهات [؟] ان هذه تقتضي الاثنينية في اصل الوجود) ٠واذا سلم صاحبنا من هذه المؤاخذة فكل مؤاخذة اخرى يهون امرها ٠ وليس الانسان معصوماً من الخطأ الا من خصه الله برحمته من الانبياء واوصيائهم وان ظن هو في نفسه وفي العرفاء اهل الارصاد العقلية العصمة او شبه العصمة فسيأتي بعض حسابهم) ٠

٦/رأيه في ابن عربي

يكثر من النقل عن محي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ في جميع كتبه ولا يذكره الا بالتقديس والتعظيم ، كالتعبير عنه بالحكيم العارف والشيخ الجليل المحقق ونحو ذلك ٠ بل في بعض المواضع ما يشعر بأن قوله عنده من النصوص الدينية التي يجب التصديق بها ولا يحتمل فيها الخطأ ٠

هنا رأيه فيه ، بينما ان ابن عربي هذا سماه بعض الفقهاء بمميت الدين او ماحي الدين[٢٠] ، بل قيل: (ان كل من يرى في ابن عربي حسن اعتقاد ويعتقد باراته فان الفقهاء لابد ان يعدوه كافراً)[٢١] ولئن دافع عنه القاضي السيد نور الدين التستري في مجالس المؤمنين واول كثيراً من كلماته ، فان صاحب الروضات ص٧٠٥ لم يرضه ذلك ، وقال: (لو كان الامر كذلك لما بقى على وجه الارض كافر ولا هالك) ٠

وكأن صاحبنا صدر المتألهين استشعر هذه المؤاخذة عليه ، فاعتذر عن ذلك في شرحه لاصول الكافي الذي له قراء مخصوصون غير قراء كتبه الفلسفية ، فقال في مقدمته ص٥: (وليعذرني اخواننا اصحاب الفرقة الناجية[٢٢] ما افعله في اثناء الشرح وتحقيق الكلام وتبيين المرام من الاستشهاد بكلام بعض المشايخ المشهورين عند الناس وان لم يكن مرضى الحال عندهم ، نظراً الى ما قال امامنا امير المؤمنين عليه السلام: لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال) وطبعا لم يقصد ببعض المشايخ غير ابن عربي لانه لا يستشهد بكلام غيره من مشايخ الصوفية الا نادراً جداً ٠

ولكن هذا الاعتذار ، وتبريره بقول امير المؤمنين عليه السلام لم يرفع المؤاخذة عليه في الاستشهاد بكلامه لانه – اولا – لم يعتذر في كتاب اخر ، و – ثانياً – حينما يخالف في الرأي كثيراً ما يحاول توجيه كلامه على الوجه الذي يليق به ، اكباراً له باعتباره من اعاظم الآلهيين القديسين عنده ٠

خذ مثالاً لذلك مخالفته في مسألة علم الله ، فانه استعظم عليه ان يقول بثبوت المعدومات[٢٣] ، فقال في الاسفار معتذراً عنه وذكره بلفظ الجمع باعتباره الممثل لطائفة مشايخ الصوفية: (لكن لحسن ظننا بهؤلاء الاكابر لما نظرنا في كتبهم ووجدنا منهم تحقيقات شريفة مطابقة لما افاضه الله على قلوبنا مما لا شك فيه حملنا ما قالوه ووجهنا ما ذكروه حملا صحيحاً ووجهاً وجيهاً ...) ثم ذكر توجيهه لقوله

وهذا الاعتذار عنه يجعل الاعتذار عن الاستشهاد باقواله لا قيمة له في نظر من يرى في ابن عربي مميتاً للدين او ماحياً له ·

واعظم من ذلك انه في مسألة حدوث العالم في السفر الثاني من الاسفار يذكر فصلاً فيه بعنوان (فصل في نبذ من كلام ائمة الكشف والشهود من اهل هذه الملة البيضاء في حدوث العالم) ص١٧٦ · ولا يذكر في هذا الفصل الا كلمات لامير المؤمنين عليه السلام · ثم يقول: (واما كلام اهل التصوف والمكاشفين) فينقل عبارات لابن عربي فقط · وحينما يختمها يقول: (انتهى كلامه الشريف) ·

فعده من ائمة الكُشف والشهود وجعله في صف امير المؤمنين عليه السلام ، ووصف كلامه بالشريف يجعله اعظم من ان يصح فيه الاعتذار بانه (لاتنظر الى من قال وانظر الى ما قيل) ·

وهو – بعد – لا يجعل احداً من الفلاسفة في رتبته ، حتى الشيخ الرئيس والشيخ نصير الدين الطوسي ، فانه لا يتأخر عن نقدهما ولا يتحرج من تفنيد آرائهما دون ابن عربي · وقد سمعت كيف كان يتحاشى من مخالفته ويوجه كلامه · واذا خالفه في بعض نكات البحث فانه يرقق العبارة بما لا يوجب

طعناً فيه (راجع الاسفار ٤ : ١٦١و١٦٦) على الضد من مخالفته للشيخين الرئيس والطوسي ·

واكبر الظن ان الذي اخذ بمجامع قلب صاحبنا صدر المتألهين من هذا الشيخ اعجابه بآرائه في الوجود التي قال عنها كما تقدم : (لما نظرنا في كتبهم وجدنا منهم تحقيقات شريفة مطابقة لما افاض الله على قلوبنا) وتغافل عن آرائه الاخرى التي يختلف معه فيها ولم يطلع على ابعد الفروض · وفي الواقع لا يريد من التعبير بكتبهم الا كتب هذا الشيخ وتلاميذه · ولا يريد من التحقيقات الشريفة الا آرائه في الوجود واحكام الموجودات التي هي – اعني هذه الآراء – سر فلسفة صاحبنا في جميع مذهبه العرفاني · قال في المشاعر ص٥: (ولما كانت مسألة الوجود رأس القواعد الحكمية ، ومبنى المسائل الآلهية والقطب الذي تدور عليه رحى علم التوحيد وعلم المعاد وحشر الارواح والاجساد ، وكثير مما تفردنا به باستنباطه وتوحدنا باستخراجه فمن جهل بمعرفة الوجود يسري جهله في امهات المطالب ومعظماتها والذهول عنها) ·

وكم يتبجح في كل مناسبة انها لم تنفتح لغيره من ذوي الابحاث النظار كالشيخ الرئيس واضرابه ، وفي جنب ذلك يستشهد بكلام ابن عربي لتأييد آرائه · قال في الاسفار (٤ : ١٢٤) : (ان هذه الدقيقة وامثالها من احكام الموجودات لايمكن الوصول اليها الا بمكاشفات باطنية ··· ولا يكفي فيها القواعد البحثية ···) · ثم قال بعد صفحة عن الشيخ الرئيس: (والعجيب انه كلما انتهى بحثه الى تحقيق الهويات الوجودية دون الامور العامة تبلد ذهنه وظهر منه العجز) ·

وفي موضع آخر من هذا السفر ص١٣٠ يقول – ويعني نفسه – : (اني اعلم من المشتغلين بهذه الصناعة من كان رسوخه بحيث يعلم من احوال الوجود اسراراً

تقصـر الافهـام الذكيـة عـن دركهـا ، ولـم يوجـد مثلهـا فـي زبـر المتقـدمين والمتأخرين من الحكماء والعلماء ، و لله الحمد وله الشكر)

وبالطبع لا يقصد بزبر المتأخرين ما يشمل زبر ابن عربي كيف وهو لا يفتر من الاستشهاد باقوال هذا الشيخ في اكثر هذه المجالات تأييداً لآرائه٠

٧/موقفه مع الفقهاء

وهذا من البحوث التي تناولت منزلة المترجم له ونشأته العلميتين ومدرسته الجديدة في الحكمة ومنهجه التاليفي ومؤلفاته والمؤاخذات عليه · وكل فصل منها بحث مستفيض قائم بذاته ، وهذه الابحاث بمجموعها تؤلف مقدمة لكتابه الكبير (الاسفار) الذي هو الان تحت الطبع بطهران · وقد صدر منه الجزء الاول

المحرر

من الامور التي سجلت على فيلسوفنا تحامله على الفقهاء وتوهينه لهم ، بل على كل من اشتغل في العلوم ، عدا من لهم رسوخ في الحكمة العرفانية ·

قال صاحب المستدرك (ج٣ص) : (قد كثر في كتبه من الطعن على الفقهاء وحملة الدين وتجهيلهم وخروجهم من زمرة العلماء) ·

والحق ان صاحبنا تجاوز الحد في الشكوى الثائرة والنقد القاسي الذي لا يطاق (راجع الرسائل الثمان له ص٢٥٨ في رسالة الواردات القلبية)

وفي تفسيره ص٣٥٢ في تفسير آية الكرسي ، حينما بحث عن مسألة انقطاع العذاب ، واستشعر مخالفة كلامه لاجماع الفقهاء ـ اخذ يقارن بين اصحابه اصحاب الشهود والعرفان وبين الفقهاء ، فالفقهاء عنده كانوا عالمين باحكام الله الا انهم في معرفة الذات والصفات والافعال الآلهية كباقي المقلدين من المؤمنين ، بخلاف اهل التوحيد الشهودي ·

ثم يطلب من خصومه ـ وهم الفقهاء ـ الا يظن احد منهم في اهل التوحيد الشهودي (ان ورعهم في امور الدين واحتياطهم في عدم القول

في مسألة شرعية بمجرد الظن والتخمين يكون اقل من ورع غيرهم واحتياطهم · هيهات ! هذا من بعض الظن) ·

ثم يأخذ بالثناء على اهل التوحيد الشهودي بما يرفع من ضبعهم ، ثم يقيسهم بغيرهم – وهم الفقهاء – فيقول: (وانى يوجد لغيرهم ما كان لهم · وهم في الحقيقة اولياء الله وقوام الدين وفقهاء شريعة سيد المرسلين) ·

وهنا حتى كلمة (الفقهاء) يريد ان يسلبها من علماء الفقه ويعطيها لاصحاب الشهود ·

وزاد على ذلك حتى جعل كل آية قرآنية ، مختصا باهل الشهود التوحيدي ، الى ان يقول: (فالقدح من احد فيهم في مسألة اعتقادية دينية يدل على قصور رتبة القادح وسوء الفهم وقلة انصافه) · واكد اختصاص صفة (المؤمنين) بالعرفاء في اسرار الآيات ص٧ بل لا يرى للفقهاء شأناً في المعرفة والعلم والدين ، اذ هو من جهة ينتقدهم في تعظيمهم للفقه ، ولا يرى من الجدير بالانسان ان يصرف عمره فيه ، ومن جهة ثانية ينقد تهاونهم بالحكمة والفلسفة واهلها ، مع ما يشكوه مر الشكوى في تحقيرهم له المبدأ والمعاد ص٢٧٨ – (اذ ما كان له عند الناس رتبة ادنى من آحاد طلبة العلم ، ولا عند العلماء الذين اكثرهم اشقى من الجهلاء قدر اقل تلامذتهم) · وما اقسى كلمته عنهم : (اكثرهم اشقى الجهلاء) · ولا ندري هل ان تحامل بعضهم عليه في مبدأ امره هو الذي دفعه الى تعميم هذا النقد القاسي او ان تحامله عليهم هو الذي دفعهم الى نقده وتوهينه ·

وعلى كل حال ، فهو لم يختص بنقد الفقهاء ، بل تجاوز الى نقد جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وطرقهم ، من الحكماء اصحاب البحث والمتكلمين الى المتصوفين والاطباء وعلماء اللغة والمؤرخين · بل اعتبر جميع الناس هالكين ، وان الايمان الحقيقي في غاية الندرة ، بل لا يوجد في كل عصر الا واحد او اثنان (اسرار الايات له ص٧) بل عنده اكثر اهل الاسلام ظاهراً اهل الكفر والشرك باطناً ·

ولم يرض ان يشتغل احد بغير الحكمة العرفانية ، وكل ما عداها علوم جزئية غير ضرورية ، الاشتغال بها مضيعة للعمر وابتعاد عن الوصول الى النعيم الدائم ، فنقد ابن سينا (الاسفار ج٤ ص١٢٧) في اشتغاله بالعلوم الجزئية ، كاللغة ، ودقائق الحساب وفزارنماطيقي وموسيقى وتفاصيل المعالجات في الطب وذكر الادوية المفردة والمعاجين واحوال الدرياقات والسموم والمراهم والمسهلات ومعالجة القروح والجراحات ·

وكأنه انما يعدد كل هذه التفاصيل لأجل توهينه في نظر القارئ وتسخيفها ، باعتبارها اموراً غير ضرورية والاشتغال بها اشتغال بامور الدنيا وحبائلها ، مع ان ابن سينا في نظره (يجب ان يكون معرضاً عن الخلق طالباً للخلوة آنساً بالله وآيساً من غيره) ·

ومن تهكماته في المشتغلين بغير الحكمة العرفانية قوله في اسرار الايات ص٦٥: (ان كنت من اهله والا فغض بصرك عن مطالعة هذا الكتاب – يعني اسرار الايات – والتدبر في غوامض القرآن · وعليك ممارسة القصص والأخبار والروايات من غير دراية ، وماهو عندك كالنتيجة للكل – يعرض بما يذكره الفقهاء في علم الاصول من لزوم

دراسة بعض العلوم مقدمة للفقه – من البحث عن المسائل الفرعية والخلافية ، ونوادر تفريعات الطلاق والعتاق والسلم والرهن والاجارة وقسمة المواريث ...) الى ان يقول: (وقد نصب الله لها كسائر الامور التي هي ادون منزلة منها اقواما يعظمون الامر فيها ويصرون عليها ويفرحون بها . وكل حزب بما لديهم فرحون . قيمة كل امرئ على قدر همته)

وهكذا ينقم على الفقهاء علمهم ، كما ينقم على غيرهم . ولا يرضى بغير الحكمة علماً وبغير الحكماء علماء .

وهذا كله غلو مفرط في فلسفته ، ولا لوم على الفقهاء ولا على غيرهم اذا كان عندهم موضع التهمة والتجريح وفي الحقيقة لم يقسوا عليه كما قسا هو عليهم .

واذا اردنا ان نأخذ برأيه كله في هذا الباب لوجب ان نعطل جميع المعارف والعلوم وجميع الاعمال والمكاسب وجميع الامور المدنية ، ليبقى الانسان معتكفاً في الكهوف منتظراً للواردات القلبية والمشاهدات العقلية ، فيكون – على حد تعبيره – صوفيا صفا قلبه وخلص ضميره من كل شوب وغرض .

كان المنتظر من صاحبنا – كفيلسوف خبر النفس الانسانية ومتطلباتها – ان تكون نظرته الى الانسان الاجتماعي بالطبع غير هذه النظرة الانانية المتشائمة . والمنتظر منه – كمسلم عرف الشريعة الاسلامية وما وضعت للبشر من تكاليف وانظمة وقوانين – ان يكون حكمه على الانسان غير هذا الحكم الرهباني الذي ما انزل الله به من سلطان .

وعلى كل حال ، فانه – وهو يعرف ان كل انسان ميسر لما خلق له كما كرر ذلك في كتبه – كان يجب ان تكون نظرته الى افراد الناس اكثر تقديراً للواقع ، وانصافاً في الحكم ، وحبا في الخير ولا يبرر تحامله على الناس ذلك التحامل القاسي انه لاقى عنتا منهم اشرقه بريقه ، فان هذا ليس من

شيمة العلماء الآلهيين الذين يتطلبون صلاح البشر وهدايتهم الى الله تعالى · فلا ينبغي ان ينتقم لنفسه منهم ·

واذا كان قصده اقلاعهم عما هم عليه واقبالهم على الحكمة والمعرفة الفلسفية – فليس هذا طريق ترغيب البشر وتحبيذ سبل النجاة لهم بالعنف والشتم والتحقير بل يلزم للمرشد الهادي ان يأخذ بايدي الناس الى الخير بالرفق والشفقة والمحبة ·

واكبر الظن ان فيلسوفنا كان مصابا بكبت عنيف نتيجة لحرمان قاس ، وهو الذي دفعه – فيما اظن – الى العزلة الطويلة في الجبال النائية خمسة عشر عاماً كما تحدثنا عنه في الفصول السابقة ، ودفعه الى النفرة من الناس والنظر اليهم بمنظار اسود قاتم ·

وان كنت لم استطع ان اقف على ظروفه الخاصة ، لاحكم على مصدر ذلك الكبت ونوع ذلك الحرمان ·

ولعل ذلك الكبت قد رافقه منذ الصغر ، وهو الذي حدد له اتجاهه الفلسفي وطريقته العرفانية الصوفية · وان كان قد يعتقد هو ان تفكيره وعقله الواعي · هو الذي ساقه الى اختيار هذا السبيل ·

وقد نجد ما يشير الى ذلك الكبت والحرمان اعلانه للتنمر والنقمة والقسوة في النقد كلما وجد لذلك مجالاً : على الفقهاء ، على المتكلمين ، على الحكماء ، على الصوفية · وتكاد تكون اكثر تلك الاندفاعات لا شعورية منبعثة من عقله الباطن ·

وكونه الولد الوحيد المدلل لابيه الوزير وقد فقده في حداثه سنه ما يعين على هذا الاستنتاج ويقربه الى التصديق ·

الهوامش :

١٠ وقد تجد خامساً لهم هو محي الدين بن عربي (المتوفى ٦٣٨) ٠ والعهدة في عده من هذه الطبقة بل فوقها على صاحبنا الشيرازي وسيأتي في بحث المؤاخذات عليه رأيه فيه ٠

٢٠ ولم نتحقق اسم تلك الدولة ولا ملوكها ، خصوصاً مع انه في عصر الصوفية الذين شمل حكمهم جميع ايران ٠

٣٠ الاسفار ج١ ص١٠ ٠ ويرجى من كل من يريد الرجوع الى الاسفار في معرفة ما نشير اليه ان يرجع الى الطبعة الحجرية بعد ترقيم نسخته ٠

٤٠ راجع سفينة البحار (ج٢ ص١٧) في الحاشية ٠

٥٠ راجع حاشية سفينة البحار (٢:١٧)

٦٠ راجع رسالة المظاهر المطبوعة على هامش المبدأ والمعاد ص٢٣٢

٧٠ الاسفار في المقدمة ص٤ ، والمبدأ والمعاد ص٤ وغيرهما

٨٠ الاسفار ج١ ص٥١

٩٠ قصص العلماء ص٣٧ فما بعدها

١٠٠ الروضات ص٣٣١

١١٠ في اعيان الشيعة (٥ : ٣٥٢) عن التكملة: (وكان مبايناً لطريقة والده لا يعتني الملوك ، وهو ألف تلك لملك عصره)

١٢٠ راجع تفسير الفاتحة ص١٠ وغيره

١٣٠ الاسفار (١ : ١٩١)

١٤· نفس المصدر ص١٩٠

١٥· نفس المصدر ص١٩٦

١٦· نفس المصدر ص١٦

١٧· نفس المصدر ص١٥

١٨· تفسير الفاتحة ص١٥

١٩· الاسفار (١ : ١٩٠)

٢٠· الروضات ص٧٠٥ واظن ان السر في ذلك قوله بوحدة الوجود واعلانه لها وتقديسه لبني امية واضرابهم وتصحيح اعمال يزيد بن معاوية ونحوه

٢١· قصص العلماء ص٢٥٢

٢٢· من هذه العبارة نستشعر جهة المؤاخذة عليه في اعتماده على ابن عربي

٢٣· راجع الاسفار (٣ : ٣٧) والمبدأ والمعاد ص٦٨

الفهرست